مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبر ١١: ٣٣–٤٠؛ ١٢:١–٢)

يا إخوةُ إنَّ القدِّيسينَ أجمعين بالإيمانِ قهَروا الممالِكَ وعمِلوا البرَّ ونالوا المواعِدَ وسدُّوا أفواهَ الأُسود* وأطفأوا حِدَّةَ النارِ ونجَوا من حدِّ السيفِ وتقوَّوا من ضُعفٍ وصاروا أشِدَّاءَ في الحربِ وكسَروا مُعسكراتِ الأجانب* وأخذَت نساءٌ أمواتَهنَّ بالقيامة. وعُذِّبَ آخرونَ بتوتيرِ الأعضاءِ والضربِ ولم يقبَلوا بالنجاةِ ليحصلوا على قيامةٍ أفضل* وآخرونَ ذاقوا الهُزءَ والجَلْدَ والقيودَ أيضاً والسجنَ* ورُجِموا ونُشِروا وامتُحِنوا وماتوا بحدِّ السيف. وساحوا في جلودِ غَنَمٍ ومَعزٍ وهم مُعْوَزون مُضايقون مجهودون* ولم يكنِ العالمُ مستحقًّا لهم. فكانوا تائِهينَ في البراري

أحد جميع القديسين

من الواضح أنّ أحد جميع القديسين يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعيد العنصرة. فلقد لحظ الترتيب الليتورجيّ أن نعيّد للقديسين جميعهم في الأحد الذي يلي العنصرة، بحيث يأتي أحد جميع القديسين خاتمةً للموسم العظيم الذي افتتحه عيد الفصح. التفسير المباشر لهذا الارتباط يقوم في أنّ العنصرة هي عيد تأسيس الكنيسة، وذلك إثر حلول الروح القدس على تلاميذ يسوع الناصريّ المجتمعين في صهيون، وانطلاق البشارة بيسوع من أورشليم إلى اليهوديّة وسائر أنحاء المعمورة: «فقبلوا كلامه (أي بطرس) بفرحٍ واعتمَدوا وانضمَّ في ذلك اليوم نحوٌ ثلاثةِ آلافِ نفس... وكان الربُّ كلَّ يومٍ يضمُّ إلَى الكنيسةِ الذينَ يخلُصون» (أع ٢: ٤١ و٤٧).

لقد أسّس الروح القدس الكنيسة مرّةً واحدة، وذلك في اليوم الخمسين. وهو بحضوره يمدّ هذا الحدث في حياة المؤمنين. فمن اعتمد على اسم يسوع، منحه الروح بركة هذا اليوم، على نحو شخصيّ، في سرّ الميرون، بحيث يصحّ القول إنّ الميرون عنصرة شخصيّة. والحقّ أنّ ما يغدقه الروح من مواهب على أعضاء الكنيسة إن هو إلاّ امتداد لهذه اللحظة، لحظة معموديّتهم وعنصرتهم الشخصيّة عبر تقبّلهم الميرون. القداسة في الكنيسة، إذاً، تشكّل نتيجةً مباشرةً لحدث العنصرة. فالقداسة إن هي إلاّ ظهور، في الكنيسة، كثيف لهذه الولادة الجديدة التي أُعطيناها بالمعموديّة والتي ختمها الروح القدس بحضوره: «لقد تعمّدتَ، لقد استنرتَ، لقد تميرنت، لقد تقدّست على اسم الآب والإبن والروح القدس». ليس من المستغرب، تالياً، أن يلي أحد جميع القديسين، بحسب الترتيب الليتورجيّ، أحد العنصرة مباشرةً وأن يكون وإيّاه في ارتباط لا تنفصم عراه.

العدد ٢٠٠٨/٢٥
الأحد ٢٢ حزيران
أحد جميع القديسين
تذكار الشهيد في الكهنة أفسابيوس أسقف سُميساط
اللحن الثامن
إنجيل السَحَر الأول

إذا كانت القداسة نابعةً من حدث إنشاء الكنيسة في العنصرة، فالكنيسة بدورها تتأسّس، بمعنًى ما، على ظاهرة القداسة. هذا تعبّر عنه الليتورجيا أيّما تعبير. فهي، بخلاف منظور أهل الدنيا الذين يؤرّخون للأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية، لم تحفظ في ذاكرتها إلاّ أسماء أولئك الذين أحبّوا يسوع حبًّا

والجبالِ والمغاورِ وكهوفِ الأرض* فهؤلاءِ كلُّهم مشهوداً لهم بالإيمانِ لم ينالوا الموعِدَ* لأنَّ اللهَ سبَق فنظرَ لنا شيئاً أفضلَ أن لا يكمُلوا بدونِنا* فنحن أيضاً إذ يُحدِقُ بنا مثلُ هذه السحابةِ من الشهودِ فلْنُلْقِ عنَّا كلَّ ثِقْلٍ والخطيئةَ المحيطةَ بسهولةٍ بنا. ولْنسابِقْ بالصبرِ في الجِهادِ الذي أمامنا* ناظِرينَ إلى رئيسِ الإيمانِ ومكمِّله يسوع.

الإنجيل

(متى ١٠: ٣٢–٣٣ و٣٧–٣٨؛ ١٩:٢٧–٣٠)

قال الربُّ لتلاميذِه كلُّ مَنْ يعترِفُ بي قدَّامَ الناسِ أعترفُ أنا به قدَّامَ أبي الذي في السموات* ومَن ينكرُني قدَّامَ الناس أُنكرُهُ أنا قدَّام أبي الذي في السموات* مَن أحبَّ أباً أو أماً أكثرَ منِّي فلا يستحقُّني. ومَن أحبَّ ابناً أو بنتاً أكثرَ منِّي فلا يستحقُّني* ومَن لا يأخذُ صليبَهُ ويتبعُني فلا يستحقُّني* فأجابَ بطرسُ وقال له هوذا نحنُ قد تركنا كلَّ شيءٍ وتبعناك فماذا يكونُ لنا* فقال لهم

جمًّا، حتى إنّ بعضهم استشهد من أجله. القديسون كنز الكنيسة الذي ما بعده كنز. على بقاياهم تُبنى المذابح التي يُقام عليها سر الشكر المقدّس. وجوههم تطالعنا بهيّة زاهية في الأيقونات التي تزيّن جدران الكنائس وتدعونا إلى الملكوت. النصوص التي ترافقنا في الطقوس تلهج بذكرهم ولا تملّ الاستزادة من سيرهم. وأقاصيصنا الشعبيّة تشكّل شهادة على تعلّق الناس بهم تعلّقاً شديداً وعلى حضورهم في وجدان الجماعة المسيحيّة حتى خارج الإطار الليتورجيّ. وربّ مؤمن اتّخذ له من أحد القديسين نموذجاً حيًّا يحذو حذوه في اتباع المسيح ويستلهم سيرته وأقواله في ما يواجهه من صعوبات الحياة وتحدّياتها.

والحقّ أنّه من فادح الخطأ أن نعتبر الكنيسة تنظيماً أو مؤسسةً أو حزباً أو ما شابه ذلك. الكنيسة تلجأ إلى المؤسسات، كالمدارس والجامعات والمياتم والمستشفيات، لأنّها تحاول، على هذا النحو، أن تجعل شهادتها ليسوع في العالم أكثر فاعليّة. والكنيسة تستنجد بالأُطر التنظيميّة، لكونها ترى أنّ كلّ شيء يجب أن يتمّ بلياقة وترتيب (١ كور ١٤:٤٠). فالمسيحيّة لا تستسيغ الفوضى، ولا تركن إلى البلبلة. بيد أنّ جوهر الكنيسة لا يكمن في المؤسسات، ولا يقوم في الأُطر التنظيمية، بل إنّ هذا الجوهر هو الحياة في المسيح، وهذه أكثف تعبير عنها هم القديسون. قد تتبدّل حال المؤسسات، وقد تزول الأُطر وتُستبدل بأخرى. أمّا القداسة في الكنيسة ففي ثبات دائم، لأن الروح القدس فيها. وكما قال القديس ايريناوس:«حيث تكون الكنيسة فهناك روح الله وحيث يكون روح الله هناك تكون الكنيسة وكل نعمة. والروح هو الحق. أن يُبعد الإنسان نفسه عن الكنيسة هو رفض لقبول الروح».

الكنيسة تأسست بالروح القدس المنسكب عليها، بالروح القدس الذي استقر على رؤوس التلاميذ وقدّسهم.

ينتج ممّا سبق أنّ القداسة في الكنيسة ليست ظاهرة ماضية، ولئن كان كثر من القديسين الذين نقيم ذكراهم قد عاشوا في أزمنة سبقتنا. هذا له، طبعاً، مدلول مباشر بمعنى أنّ بيننا اليوم، ولا شكّ، من تشعّ منهم قداسة الله وهذا النور الذي تدفّق يوم أبطل يسوع الموت وأرسل، في العنصرة، طاقة الروح إلى محبّيه. الكنيسة تلاحظ هؤلاء، وتحفظ ذكراهم، خلال حياتهم وبعد موتهم، في وجدانها، حتى يحين موعد إعلان ذلك على نحو رسميّ. لكن ثمّة من تقدّس واحتجب، إمّا بسبب اتّضاعه وإمّا بسبب جهلنا البشريّ لما يحوط بحياته من ظروف. فكيف لنا أن نلمّ بكلّ من يشهد لاسم يسوع في السجون ومعسكرات التعذيب، في الحروب والمجاعات والأوبئة والكوارث الطبيعيّة، في قيظ الصحارى وبرد الثلوج، في المدن الوسيعة التي يكاد أهلها لا يرون وجوه بعضهم البعض أو في القرى النائية التي يصعب الوصول إليها، في الجماعات الرهبنيّة وفي مناسك المستوحدين؟ حيال هذا، التعييد للقدّيسين «جميعهم»، مَن نعرفهم ومَن لا نعرفهم، مَن حفظت أسماءهم ذاكرتنا ومَن طواهم النسيان، هذا التعييد يكتسب أهميّة مضاعفة. لأنّ من لم تذكر أسماؤهم في وثائقنا البشريّة قائمون في ذاكرة الله، وهذا هو الأهم. ونحن في احتفالنا بالقدّيسين جميعهم إنما نجيء من هذه الذاكرة، لا من محفوظات أهل الدنيا.

غير أنّ حضور ظاهرة القداسة، اليوم، في الكنيسة لا ينحصر مدلوله في وجود قدّيسين «حاليّين»، نعرف

يسوعُ الحقَّ أقولُ لكم إنَّكم أنتم الذين تبعتموني في جيلِ التجديدِ متى جلسَ ابنُ البشرِ على كرسيِّ مجدِهِ تجلِسون أنتم أيضاً على اثنَيْ عَشَرَ كرسيًّا تَدينون أسباط إسرائيلَ الإثني عَشَرَ* وكلُّ مَن ترك بيوتاً أو إخوةً أو أخواتٍ أو أباً أو أمًّا أو امرأةً أو أولاداً أو حقولاً من أجلِ اسمي يأخُذُ مِئَةَ ضِعْفٍ ويرثُ الحياةَ الأبديةَ* وكثيرونَ أوَّلون يكونون آخِرين وآخِرون يكونون أوَّلين.

تأمل

يتكوّن، هنا على الأرض، بالتعب والألم، الإنسان الداخلي الذي يبنى روحياً حسب الله، وعندما يصل إلى الكمال النسبي، يولد بعد الموت، في ذلك العالم الكامل الأزلي. وكما تهيّء الطبيعة الجنين وهو في بطن أمه للحياة النيّرة كذلك يتكوّن المسيحيون ويستعدّون للحياة الأخرى، وهذا ما يعنيه الرسول بولس عندما يكتب إلى أهل غلاطية: «يا بَنيّ، أنتم الذين اتمخّض بهم مرةً أخرى حتى يُصوَّر فيهم المسيح» (غلا ٤: ١٩). ان صورة بعضهم ونجهل بعضهم الآخر. فحتى القديسون الذين عاشوا في أزمنة غابرة حاضرون اليوم في وجدان الكنيسة. ولا أبلغ من القرينة الليتورجيّة في التعبير عن هذا الحضور. فيوم عيد القديس، نحن نخاطبه بوصفه قائماً معنا. ونرفع، في كلّ قداس إلهيّ، القديسين جميعاً جزءاً من ابتهالنا الصاعد إلى المذبح الإلهي: «بعد ذكرنا جميع القديسين، أيضاً وأيضاً بسلام إلى الرب نطلب». كيف يمكن الماضي أن يستحيل حضوراً دائماً؟ الجواب يقوم في أن القدّيسين ينتسبون إلى الماضي من حيث مولدهم وموتهم وظروف حياتهم، لكنّهم من حيث محبّة يسوع وإخلاصهم له ينتسبون إلى الأبديّة، لكونهم متّحدين مع القائم من بين الأموات وهم جزء من جسده فإذا كان بعض من الأبديّة ينسكب علينا في كلّ قداس إلهيّ، لكون هذا القداس تصوير للقداس السماوي القائم بلا انقطاع واشتراك فيه، فإنّ القديسين يطلّون علينا أيضاً من أبديّة يسوع، يلجون إلى عالمنا، ويذكّروننا بأنّ معنى وجودنا إنّما يكمن في طاعة السيّد، كما أطاعوه هم، إلى أن يبتلعنا نور ابن الإنسان، متى أتى في مجده.

أولاد النور

في يوم الإثنين الذي يلي أحد العنصرة نعيّد للروح القدس، بحسب التقليد الليتورجي القاضي بأن يُعيَّد في اليوم الذي يلي تذكار أي من الأحداث الخلاصية لخادم الحدث والفاعل المباشر فيه. في هذا اليوم يُتلى في الكنيسة نص من رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس (٥: ٨–١٩)، الذي هو في الحقيقة مجموعة من الوصايا العملية للمؤمن الذي جدّدته نعمة العنصرة، والمنطلق تالياً للإرتقاء إلى مرتبة أسمى في الإيمان والقداسة. وكأن الكنيسة تهيّئنا للوصول إلى أحد جميع القديسين لأنّ وصايا الرسول في هذا النص تعلّم المؤمن كيف يستثمر القوة الجديدة المسكوبة عليه، عملياً، في مسعاه إلى القداسة.

«أسلكوا كأولاد للنور»، يقول الرسول في مطلع النص. بانسكاب الروح الكلي قدسه عليكم صرتم أولاداً لله، وهو ملء النور، وصرتم بالتالي مقيمين في المعرفة والإيمان الحقيقيين، وسلوككم يحكي ما أنتم عليه. النور الذي فيكم إذاً ما عاد ممكناً إخفاؤه. ثمة بُعد آخر في هذه الوصية التي محورها السلوك، أي في العلاقة مع الآخرين، هو رسولية المؤمن أي مسؤوليته عن تمدد النور وانحسار الظلمة. المسيحي متى استنار يصبح نوراً لمن حوله، أي يدل – بمجرد سلوكه في النور – على الفضيلة فيشتهيها من يرونه لأنهم سوف يشتهون الفرح والسلام اللذين فيه. النور يفضح الظلمة (حال الخطيئة) ويكشف الجهل (الابتعاد غير الطوعي عن الله)، وفي الحالتين يُشعِل حسّ التوبة أو على الأقل يحرّكه.

هذا «لأن ثمر الروح هو في كل صلاح وبر وحق» (أف ٥: ٩)، كما تقول استطراداً الآية التالية. أي زيادة في التفسير يؤكّد الرسول بولس أولاً على أن اقتناء الروح القدس يثمر، وإلا لكان نعمة عقيمة، وثانياً على أن ثمار الروح القدس هي من خصائصه وشيء من صلبه. لذا أيضاً تأتي العبارة بصيغة المطلق (كل صلاح وبر وحق)، فالروح ما انسكب يوم العنصرة نسبياً ولا للإستعمال الظرفي. لذلك، ثماره مثله مطلقة أي أنت لا تعود «تعمل

الأجنة لا تفي في الواقع بالغرض لأن الأجنة، قبل رؤيتها النور لا تملك أي معنى أو أي شعور عن حياتها الخاصة. اما القديسون فيملكون كشوفات كثيرة عن الحياة المستقبلة قبل الموت الذي به يولدون في العالم الآخر. لماذا؟ لأن الجنين قبل تكوينه وإتيانه للنور يكون ناقص الوجود والحياة. انه ما رأى بعد حتى ولا شعاع شمس وما اقترب من تلك الأشياء التي تسهم في الوجود وفي الحفاظ على الحياة الحاضرة، وما جابهها. لا يحدث مع المسيحيين ما يحدث تماماً مع الأجنة لأن الحياة المستقبلة ليست بمجهولة ولا بغريبة كلياً عن الحياة الحاضرة. انها في ترابط مع هذه الحياة. فالمسيح الشمس الروحية أشرق فينا برحمته التي لا تحد وبتنازله. وانسكب أريج الروح القدس السماوي في الأرض الممتلئة بروائح الخطيئة الكريهة وقد نفثتها سماً. والشيء الذي يفوق العجب هو ان الخبز السماوي أعطي للبشر.

القديس نيقولا كاباسيلاس

الخير» بل «تحيا الخير»، لا تصدُق أو تعدُل حسب الظرف بل أنت مقيم في الحق. من أثمر فيه الروح القدس يصبح في «الصلاح والبر والحق» مهما كان الظرف أو الزمان، وإزاء أي كان. أما الحفاظ على هذه الحال، ووقايتها من التردّي، بل والحرص على نموّها، يكون بالتمييز الروحي أي بالقدرة على الحكم في ما هو من الله وما ليس منه. والموهبة هذه تنمو وتكمُل بعيشها والاحتكام إليها. أي إنك كلما أحسنت التمييز في أمر تزداد حكمة ويزداد ذهنك من الله نوراً، فتصبح أعمق في تمييزك وأبعد نظراً.

في ما يلي يقول الرسول «لا تشتركوا في أعمال الظلمة غير المثمرة بل بالحريّ وبّخوها» (أف ٥: ١١). لعلّه يعتبر هنا أعمال الظلمة (الخطيئة) غير مثمرة لأن ثمارها أو ما ينتج عنها هو موت (يع ١:١٥). بديهي أن لايقبل من صار في النور أن يعود إلى عيش الظلمة إذ كان في الجهل وصار في المعرفة، كان في الحرمان وصار في النعمة. هذا ما زال يذكر طعم الحرمان المر والـ« لا سلام» الذي في الظلمة، وهو متى ذاق عذوبة الله لن يتخلّى عنها من بعد مهما كان. لكن الرسول يذكّر هذا التائب الحقيقي، ويشحذ يقظته، لأن التائب يستفرس عليه الشيطان أكثر. أما عن التوبيخ فهنا موضوع يسترعي الدقة في الفهم: هل يمكن أن يدعو الله أبناءه لأن يكونوا فوقيين في سلوكهم، أم أن يكونوا استمراراً لفداء المسيح الذي ذُبح من أجل الخطأة أولاً؟ لا شك أن التوبيخ في وصية الرسول بولس هنا يكون بفعل المقارنة، التلقائية، مع حياة الممتلئ من الروح القدس المنيرة. أعمال الشر والظلام تنفضح تلقائياً ما أن تتعرض للنور. بمعنى آخر عيش الفضيلة يفضح الخطيئة، وحيثما ازدادت الفضيلة تقلّصت مجالات الخطيئة.

لقد قال الرب آمراً جازماً «لا تدينوا» (متى ٧:١). هل يناقض الرسول بولس إذاً تعليم ربّه وسيّده إذ يقول «وبّخوا الأعمال الشريرة» قطعاً لا. فهو لا يدعو المؤمنين إلى أن يصبحوا على الناس ديانين وقضاة بل يدعوهم إلى إدانة الخطيئة لا الخاطئ. الإدانة أصلها تَكَبُّر وأنانية وازدراء للآخر، بل وأيضاً جهل إذ تعمي صاحبها عن زلاته. أما المقتبل نعمة الروح القدس فهو لا ينشغل بإدانة الآخرين عن فحص ذاته، لا يكتفي بأناه إذ هو يرى وجه الله كيفما تلفّت، لا يزدري أحداً لأنه في اللهِ واللهُ محبَّة، وما عاد أعمى لأن نور الله أضاء كيانه. هذا يكتفي بأن يسلك في النور، أي أن يعيش «الصلاح والبر والحق» مهما كانت ظروف حياته، فينير لمن حوله وعليهم لا محالة. إذ ذاك يكشف ضوء الفضيلة أعمال الخطيئة المختبئة في الظلمة، «لأن كل ما أُظهر فهو نور» (أف ٥:١٣) على حد قول الرسول.

«فانظروا كيف تسلكون بالتوفيق لا كجهلاء بل كحكماء» (أف ٥: ١٥). مَن أراد أن يسلك في القداسة عليه أن يبحث بتدقيق كيف يسلك بحكمة لأن طريق الجهل تؤدي إلى الهلاك: «ان الحكمة تُحيي أصحابها» (جا ٧: ١٢). كما عليه أن لا يؤجل سلوك طريق الرب لأن الإنسان لا يعرف ماذا يخبئ له الغد، ولا يعرف كيف سيحاول الشيطان الإيقاع به، ولا يعرف متى يداهمه الموت. لذا يقول الرسول «مفتدين الوقت لأن الأيام شريرة» (أف ٥: ١٦).

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb